

## شاعر الفزك عمر بن أبي ربيعة

وأنها حلفت بالله جاهدةً      وما أهلّ له الحُجَّاجُ واعتمروا  
ما وافق النفس من شيءٍ أُسرَّ به      وأعجب العينَ ؛ إلا فوقه عُمرُ

هكذا وصف أبو الخطاب عُمر بن عبد الله بن أبي ربيعة نفسه ، وهكذا عاش شاعر قریش — الذى انتزع لها قصب السبق فى الشعر على سائر العرب — واسطة العقد فى كل مجلس ، وأحبَّ سمر إلى كل معشر ؛ وأمضى حياته فى لهو ولعب ، وكان له منذ وُلد من نشأته وعصره . فلقد وُلد ليلة ٢٦ ذى الحجة ٢٣ هـ ( ٦٤٤ م ) ، ليلة مقتل خليفة المسلمين عمر بن الخطاب ، فسمَّوه باسمه ، وكنَّوه بكنيته ؛ وعاصر شبابه شباب دولة بنى أمية التى استحدثت الملكية فى الإسلام ، وفاضت خزائنها بأموال الفئ ، واتسعت فتوحاتها حتى بلغت المحيطين شرقاً وغرباً ، وحُبست الصحابة والأشراف فى المدينة ومكة ، وأغدقت عليهم الأموال انقاء خروجهم ، وما قد يصحبه من فتنة .

وعمر ؛ قد ورث عن أبيه أموالاً طائلة وتجارة أعانتة على حياته الالهية وحفظت عليه مظاهر الأبهة والجاه ، حتى إنه لما تاب عن قول الشعر كان يعتق بكل بيت يقوله عبداً أو أمةً إلى أن وافاه أجله عن سبعين عاماً ، فى أرجح الأقوال ، شاهدَ خلالها ألواناً من الفتن والحروب التى ثارت فى أنحاء العالم الإسلامى ، بل كانت هى من أشد الفتن والثورات فلم يحفل بها ولم يتأثر ، بل عاش فى عالمه الخاص لا يسمع بتلك المعارك الدموية التى تنور فى كل يوم حتى قتلت زوجة المختار الأنصارية الجميلة التى أبَّت أن تذلَّ زوجها فقال :

إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْكِبَائِرِ عِنْدِي قَتَلَ حَسَنَاءَ غَادَةٍ عَطْبُولٍ  
قُتِلَتْ بِاطْلَافٍ عَلَى غَيْرِ ذَنْبٍ إِنْ لَلَّهِ دَرَّهَا مِنْ قَتِيلٍ  
كُتِبَ الْقَتْلُ وَالْقِتَالُ عَلَيْنَا وَعَلَى الْمُحْصَنَاتِ جُرْءُ الذِّيُولِ

أجل ! اهتزت مشاعر عمر للعدوان على الجلال ، فصاح يلوم المعتدين ويؤنبهم على فعلتهم التي تخالف العرف وأنخلق العربي الكريم .

ورغم أن عمر قد تخصص في ناحية من نواحي الشعر كانت بعيدة كل البعد عن أحداث عصره إلا أنها أكتسبت شهرة واسعة ورفعت مكانة قريش حتى قال يعقوب بن إسحاق : « كانت العرب تقرأ لقريش بالتقدم في كل شيء عليها ، إلا في الشعر فإنها كانت لا تقرأ لها به ، حتى كان عمر بن أبي ربيعة ، فأقرت لها الشعراء بالشعر ولم تنازعها شيئاً » .

ولقد اشتهر عمر بإجادة الوصف بأنواعه المختلفة ، ولو أن صورته الوصفية كثيراً ما جاءت ضمن قصائده الغزلية كقوله يصف نفسه وقد أقبل من سفره :

فَقَالَتْ : نَعَمْ لَا شَكَّ غَيْرَ لَوْنُهُ سُرَى اللَّيْلِ يَطْوِي نَصَّهُ وَالتَّهَجُّرُ  
رَأَتْ رَجُلًا ، أَمَا إِذَا الشَّمْسُ عَارَصَتْ فَيَضْحَى ، وَأَمَا بِالْعِشِيِّ فَيَخْضَرُ  
أَخَا سَقَرٍ ، جَوَابَ أَرْضٍ تَقَاذَفَتْ بِهِ فَلَوَاتٌ فَهُوَ أَشْعَثُ أَغْبَرُ  
أَمَا وَصَفَ الْجَمَالَ فَلَا شَكَّ فِي أَنَّهُ كَانَ رَسُولُهُ الْأَوَّلَى . فَاسْتَمَعَ إِلَيْهِ يَصِفُ هَذِهِ

الغادة البيضاء الممثلة الذراعين والساقين :

خَدْلَجَةٌ<sup>(١)</sup> إِذَا انْصَرَفَتْ رَأَيْتُ وَشَاحَهَا قَدَا  
وَسَاقًا تَمَلُّ انْخَلَا لَ فِيهِ تَرَاهُ مَخْتَنِقًا

كما كان لأبن أبي ربيعة خيال واسع ، وروح كبيرة يضفي منها على صورته ،

(١) خدلجة : ممثلة الذراعين والساقين .

فيحيلها نابضة بالحياة والحركة ، حتى الجراد يتحدث إليه ، ويسمع منه ، وهو يشكو ويعتب :

سائلاً الربيع بالبلى وقولاً هجت شوقاً لى الغداة طويلاً  
أين حتى خلوك إذ أنت محفو ف بهم أهل أراك جميلاً ؟  
قال : ساروا فأمعنوا وأستقلوا وبرغى ولو وجدت سبيلاً  
سئموناً وما سئمننا جواراً وأحببوا دماءة وسهولاً

أليس في هذه الأسطر تعبيراً قوياً عن رقة مشاعر عمر ؟ إن شعوره مرهف حتى إنه ليذكر جياده في شعره مزاراً مُشفقاً عليها ، عاطفاً على آلامها كقوله وقد خرج يطلب ابنته أمة الواحد :

لم تذّر وليغفر لها ربها ما جشمتنا أمة الواحد  
جشمت المول برازيننا نسأل عن بيت أبى خالد

وإن أفعاله تطابق أقواله فهو قد دفع أربعمائة دينار مهر عروس . . إذفعها عن حبيبها الفقير حتى يستطيع الزواج منها لما شكا إليه حبه فرق قلبه لشكاته .

بل إنه رغم عبثه واستهتاره شديد التأثير إلى درجة بعيدة ، سريع الانفعال حتى ليقول في وداع إحدى صديقاته :

كدتُ يوم الرحيل أفضى حياتى ليتنى متُّ قبل يوم الرحيل  
لا أطيق الكلام من شدة الخوف ودمنى يسيل كل مسيل

لكنه كذلك كان سريع النسيان ، غير عميق العاطفة لهذا الحزن ، لا يتلف عليه حياته . وهذه العاطفة لا تطيح بوجوده كما فعلت بالجنون ، وقد قال معترفاً في إحدى قصصه على لسان صاحبه :

أهَذَا سِجْرُكَ النِّسَا نَ ، قَدْ خَبَّرَنِي خَبْرَكَ  
وَقُلْنَا إِذَا قَضَى وَطَرًا وَأَدْرَكَ حَاجَةً ، هَجَرَكَ

وجميع أخبار عمر تشير إلى أنه كان محترفاً للغزل ، مغرمًا بمتابعة النساء بغية اللهو وصرف الوقت والسمر . وقد قال الدكتور طه حسين : « كان كل شيء في حياة عمر وسيلة إلى الانصال بالمرأة وذكرها والتحدث إليها ، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن عمر من هذه الناحية كان أعظم سمير عرفته المرأة في تاريخ العرب . ولسنا نعرف رجلاً من رجال العرب على الإطلاق روى له الرواة قصصاً وأخباراً لعب فيها الحديث والسمر هذا الدور الذي لعبه في أخبار عمر ، ولسنا نعرف شعراً لشاعر عربي افتن فيه صاحبه بوصفه لحديثه للمرأة وحديثها إليه وإلى رفيقاتها افتنان عمر بوصفه لهذه الأمور في شعره » .

ويؤيد هذا الرأي ما جاء في الأغاني من أن عمر كان يقدم فيعتمر في ذى القعدة ، ويحل ويلبس تلك الحلل والوشى ، ويركب النجائب المحضوبة بالحقاء عليها القطوع<sup>(١)</sup> والديباج ، ويُسَبِّل لِمَتِّهِ ، ويلقى العراقيات فيما بينه وبين « ذات عِرْق » مُحْرِمَات ، ويتلقى المدينيات إلى « مَر » ، ويتلقى الشاميات إلى « الكُدَيْد » ويعترف عمر نفسه في قوله :

صِرْمْتُ وَوَأَصَلْتُ حَتَّى عَرَفْتُ أَيْنَ الْمَصَادِرُ وَالْمَوْرِدُ ؟  
وَجَرَّبْتُ مِنْ ذَاكَ حَتَّى عَرَفْتُ مَا أُنَوِّقِي وَمَا أَحْمَدُ  
وهو يعرض غزله في صور مكشوفة أقرب إلى الفكاهة والمزاح كقوله في إحدى قصائده :

وَلَمَّا أَلْتَقَيْنَا وَأَطْمَأْنَنْتُ بِنَا النَّوَى  
فَقُمْنِي لِكِي يَحْلِينَا فَتَرَفَرَقَتْ  
وَعُيِّبَ عَنَّا مِنْ نَحَافٍ وَنَشْفَقُ  
مَدَامِعَ عَيْنَيْهَا وَظَلَّتْ تَدَفَّقُ

وقالت : أما ترَحَمَنِي ؟ لا تدعَنِي لدى غَزَلِ جَمِّ الصبابة يَحْرُقُ<sup>(١)</sup>  
 فقلن أسكتي عنا فليست مطاعة وخُلكَ عنا - فاعلمي - بك أرفق  
 وبعض شعره يوحى بأنه فسق رغم أدعائه الفقه ، وتواتر كثير من الأخبار على  
 أنه عَفُّ الحب كقوله :

نَمِ أَبَدْتُ إِذْ سَلَبْتُ الـ مَرَطَ مُبَيَّضًا هَضِيًا  
 فَلَهَوْنَا اللَّيْلَ حَتَّى هَجَمَ الصَّبْحُ هُجُومًا  
 قُلْنَ قَدْ نَادَى الْمُنَادَى وَبَدَا الصَّبْحُ قَقُومًا  
 قُمْنَ يَرْجِينَ غَزَالًا فَاتَرَ الطَّرْفَ رَحِيًا  
 وَلَقَدْ قَضَيْتُ حَاجَا تَى وَلَاقَيْتُ النِّعَمَ يَمًا  
 أم تراها كانت أوهام شاعر وأحلاماً يركبها الحرمان ؟ لكن الشاعر رغم كل  
 شيء كان له رأى فى الحب كعاطفة وشعور إنسانى من أرقى المشاعر التى بدونها  
 لا يصح أن يسمى الشخص إنساناً ، فهو يقول :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فكُنْ حجراً من يابس الصخر جَامِداً  
 كما نشتمُ من بعض قصائده جدية العاطفة وصدقها كقوله :

يا خليليَّ من مَلَامٍ دعانى وإِذَا الغداة بالأطعمانِ  
 لا تلوماً فى آلِ زينب إن الـ قَلْبَ رَهْنُ بآلِ زينب عانِ  
 ما أرى ما بقيتُ أن أذكر المو قف منها بالخيف إلا شجاني  
 لم تدع للنساء عندى حظاً غير ما قلت مازحاً بلساني  
 هى أهل الصفاء والود منى وإليها الهوى فلا تعذُلانى

ولعله شغف بزينب هذه ، فأطال ذكرها فى شعره ، وشرح لهفته عليها وتوكيد

رأه حبه لها وصدقه ، حتى وصفها بأنها بعض نفسه التي بين جنبيه :

لا مُطاعٌ في آل زينب فارجعُ      أو تكلمٌ حتى يملّ اللسانُ  
كيف صبرى عن بعض نفسى وهل يصـ      بر عن بعض نفسه الإنسان ؟  
ولقد أشهدُ الحَدَّثُ (١) عند الـ      يقصر فيه تعقف وبيانُ  
وإنه ليتفجع تفجع مكلوم لفراقها :

أَلَيْمٌ بزینب إنَّ البین قد أُفِدا      قَلَّ الثواء لئن كان الرحيلُ غداً  
وإن عمر يجيد التعبير عن مشاعر الحب في قلبه في لحظات الألم وساعات الفراق  
أكثر من ساعات اللهو . . تأمل معي هذين البيتين يصف فيهما هلهة لساعة الفراق ،  
وكيف يستنجد بصره لتلك اللحظة المريّة .

زعموا بأن البينَ بعد غدٍ      قالقلبُ مما أزمعوا يحِفُ  
تشكو وأشكو مما أجَدَّ بنا      كلُّ لَوْشِكِ البين (٢) يعترفُ  
ولقد امتاز عصر ابن أبى ربيعة بنهضة فنية في الغناء والموسيقى لم يُعرف لها  
مثيل من قبل عند العرب ، وانتشر المغنون في الحجاز لا سيما من جوارى النى ،  
وعرفت مجالس الطرب والغناء لا يكمل إلا بالشعر . لذا كثرت ملازمة المغنين  
للشعراء ، كما أحبَّ الشعراء أن يطرب بشعرهم المغنى بدلا من أن يسير الحادى به  
ولقد أقبل المغنّون على شعر عُمر لما امتاز به من سهولة التعبير ودقة الوصف كقصيدته  
في فاطمة بنت عبد الملك التي قال فيها :

ضاقَ الغداةَ بحاجتى صدرى      ويئستُ بعد تقاربِ الأمرِ  
وذكرت فاطمة التي علّقها      عَرَضاً فيا لحواثِ الدهرِ  
وكانَ فاها عند رقدتها      تجرى عاينه سلافة الخمرِ

(١) مكان التحدث .

(٢) يصطبر .

فَسَبَّتْ فَوَادِي إِذْ عَرَضَتْ لَهَا يَوْمَ الرِّحِيلِ بِسَاحَةِ الْقَصْرِ  
حَتَّى لَقَدْ قَالُوا وَمَا كَذَبُوا أَجُنُنْتَ أَمْ بِكَ دَاخِلُ السَّحْرِ ؟

\*\*\*

ولقد امتاز ابن أبي ربيعة إلى جانب ذلك بمسكة قصصية وقوة ملاحظة  
شديدة أعانتاه على دقة الوصف وذكر حوادث قصصه مفصلة كأحسن ما يكون  
كاتب قصة . وقصص عمر متعددة تملأ أجزاء ديوانه منخصها بحديث خاص .

# القصص

في

ديوان ابن أبي ربيعة

القصص من أحب ألوان الفنون إلى الناس ومن أقدمها لما في طبيعة البشر من حب استطلاع أخبار بعضهم بعضاً ، ولقد ظهر القصص أول ما ظهر شعراً ؛ لأن الشعر كان أسبق للوجود من النثر ، فسجله المصريون القدماء في معابدهم وطقوسهم الدينية ، ثم اليونانيون في ملاحهم الشعرية كالإلياذة والأوديسة ، كما كان هناك بين العرب قوم تخصصوا في حفظ أخبار أحياء العرب وأنسابهم . لكن التاريخ لم يحفظ لنا ملاحم من الشعر العربي كتلك التي خلفها الإغريق ، إلا أن الشعر الذي وصلنا فيه الكثير من فنون القصة . ولقد اشتهر عمر بن أبي ربيعة بأنه أعظم سمير عرفته المرأة العربية وأحب حديثه وسمره ، ولا شك أن أحب شيء إلى قلب المرأة هو أن تسمع أخبار أعدائها وأصدقائها ، ولا شك عندى في أن عمر قد استطاع أن يرضى هذه الناحية في قلب صديقاته بما حباه الله من ملكة قصصية وقوة ملاحظة أعانتاه على دقة الوصف وتفصيله . وإذا كانت الكتب لم تحفظ لنا شيئاً يُذكر من أحاديث عمر كما أن ديوانه قد فقد الكثير من شعره فإن ما تبقى من شعر عمر فيه الكفاية لإثبات صحة ما ذهبنا إليه .

فاستمع إليه يصف في دقة كأحسن ما يكون كاتب قصة كيف تسلل ذات ليلة إلى مكان صاحبتة الذي بالغوا في إخفائه وأحاطوه بالقباب المتشابهة والحراس الأشداء الذين غلبهم النوم على أمرهم بعد طول سمر وسهر :

يا خليلي شَفَنِي الذِّكْرُ وحول الحَيِّ إِذْ صَدَرُوا

ضربوا حصر القباب لها وأديرَت حولها الحجرُ  
 سلكوا شعب النقباب بها زُمَرًا تحتها زُمَرُ  
 وطرقت الحى مكنتما ومعى غضب<sup>(١)</sup> به أمرُ  
 وأنخ لم أخش نبوته بنواحي أمرهم خبرُ  
 فإذا ريمٌ على فُرُشٍ في حبال<sup>(٢)</sup> الخرز تختدرُ  
 حوله الأحراس ترقبه نَوْمٌ من طول ما سهروا  
 شبه القتلى وما قتلوا ذاك إلا أنهم سمروا

والحوار السهل الممتع الذى ينساب كالجدول الرقراق فى تسلسل ونظام يعرض  
 القصة فى يسر ولطف شائع كثير فى شعر عمر ، وهو يجريه أحياناً بينه وبين صاحبه  
 فقط ، أو بين جماعات من الأصدقاء ، أو بين النساء وبينه ساعات اللهو والسمر .

لنستمع هذه القصة بين عمر وزينب التى شجعتة على مغازلتها ، ثم تظاهرت  
 بالصد ، لكنها عادت أخيراً للعمر :

تصابى القلب وأدكرأ صباه ولم يكن ظهراً  
 لزينب إذ تحيد لنا صفاء لم يكن كدراً  
 أليست بالتي قالت لمولاة لها ظهراً  
 أشيرى بالسلام له إذا هو نحونا خطراً ؟  
 لقد أرسلت جاريتى وقلت لها : خذى حذراً  
 وقولى فى ملاطفة لزينب نولى عمراً  
 فهزّت رأسها عجباً وقالت : من بذا أمراً ؟  
 أهذا سحرُك النسوا ن ؟ قد خبرتني الخبراً

(١) سيف .

(٢) جمع حجلة : أى قبة .

وهذه قصة أخرى من غانية شغف بها فاحتال برسول إليها ، ولقيها في سرب من لداتها اللاتي تفرقن عنهما إما أدركنه من شغف كل منهما بصاحبه . وفي هذه القصة يُجرى عمرُ الحوار بينه وبين صاحبه وبينها وبينهن ، ثم حديث صامت بينه وبينهن جميعاً ، فلنصغ إليه :

|                                                    |                                                           |
|----------------------------------------------------|-----------------------------------------------------------|
| جَرَى ناصحٌ بالودِّ بيني وبينها                    | فقرَّبني يوم الحِصَابِ إلى قَتْلِي <sup>(١)</sup>         |
| فطارت بحدِّ من فَوَادِي وقارنتُ                    | قَرِينَتُهَا حَبْلَ الصِّفَاءِ إلى حَبْلِي                |
| فلما تَوَاقَفْنَا عَرَفْتُ الذِي بها               | كَمَثَلِ الذِي بِي حَدَّوْكَ النَعْلَ بالنَعْلِ           |
| فَقُلْنَ لها هذا عِشَاءٌ وَأَهْلُنَا               | قَرِيبُ الْمَاءِ تَسَامَى مَرْكَبُ البَغْلِ؟              |
| فَقَالَتْ : فَمَا شِئْتِ؟ قُلْنَ لها : أُنْزِلِي   | فَلَلْأَرْضُ خَيْرٌ مِنْ وَقُوفٍ عَلَى رَحْلِ             |
| نَجُومٍ دَرَارِيٍّ تَكْنُفُنَ صُورَةَ              | مِنَ البَذْرِ وَاقْتُ غَيْرَ هُوجٍ وَلَا عُجَلٍ           |
| فَسَلَّمْتُ وَاسْتَأْنَسْتُ خِيفَةَ أَنْ يَرَى     | عَدُوٌّ مُقَامِي أَوْ يَرَى كَاشِحٌ فَعَلِي               |
| فَقَالَتْ وَأَرَخْتُ جَانِبَ السِّتْرِ إِنَّمَا    | مَعِيَ فَتَسَكَّامُ غَيْرَ ذِي رِقْبَةٍ أَهْلِي           |
| فَقُلْتُ لها : مَا بِي لَمْ مِنْ تَرْقُبِ          | وَلَكِنْ سِرِّي لَيْسَ يَحْمِلُهُ مِثْلِي                 |
| فَلَمَّا اقْتَصَرْنَا دُونَهُنَّ حَدِيثَنَا        | وَهُنَّ طَبِيبَاتٌ بِحَاجَةِ ذِي الشَّكْلِ <sup>(٢)</sup> |
| عَرَفْنَ الذِي تَهْوَى قُلْنَ أُنْذِنِي لَنَا      | نَطْفُ سَاعَةٍ فِي بَرْدِ لَيْلٍ وَفِي سَهْلٍ             |
| فَقَالَتْ : فَلَا تَلِيثَنَّ . قُلْنَ : تَحَدَّثِي | أَتَيْنَاكِ . وَانْسَبَنَّ أَنْسِيَابَ مِمَّا الرَّمْلِ   |
| فَقَمْنِ وَقَدْ أَفْهَمْنَا ذَا اللَّبِّ أَنَّمَا  | أَتَيْنَ الذِي يَأْتِينُ مِنْ ذَاكَ مِنْ أَجْلِي          |

وقد تحوى القصيدة قصة مكتملة التركيب الفني من موضوع وحوادث سلسلة تؤدي إلى الخاتمة الطبيعية المحبوبة بعد عرض للأحداث ووصف للمشاعر ومفاجآت تأخذ باللب .

(١) موضع رمى الجمار .

(٢) دل المرأة وغزلها .

ومن أمثلة هذا القصص ما يروى من أنه « كان يهوى امرأة يقال لها أسماء فكان الرسول يختلف بينهما زمناً وهو لا يقدر عليها ثم وعده أن تزوره فتأهب لذلك وانتظرها فأبطأت عنه حتى غلبه النوم وكانت عنده جارية له تخدمه فلم تلبث أسماء أن جاءت ومعهما جارية لها فوققت حجرة<sup>(١)</sup> وأمرت الجارية أن تضرب الباب فلم يستيقظ ، فقالت لها : تطلعي فانظري ما الخبر ؟ فقالت لها هو مضطجع وإلى جنبه امرأة فخلفت لا تزوره حولاً فبعث إليها امرأة كانت تختلف بينه وبين معارفه وكانت جزلة<sup>(٢)</sup> من النساء فصدقها عن قصته وحلفت لها أنه لم يكن عنده إلا جاريته فرضيت . وفي ذلك يقول :

|                                              |                                     |
|----------------------------------------------|-------------------------------------|
| طالَ لَيْلِي وتَعَنَانِي الطَّرَبُ           | واعتراني طولُ هَمٍّ ووَصَبُ         |
| أرسلتُ أسماءَ في مَعْتَبَةٍ                  | عَتَبَتْهَا وهي أحلى من عَتَبِ      |
| أنْ أُنَى منها رسولٌ مُوهِنًا <sup>(٣)</sup> | وجد الحَيَّ نياماً فأَنقَلَبُ       |
| ضَرَبَ البابَ فلم يشعر به                    | أحْدُ يفتح باباً إذ ضَرَبَ          |
| قال : أَيْقَازٌ ولكن حاجةٌ                   | عَرَضَتْ تُسَكِّمُ ههنا فأَحْتَجِبُ |
| ولَعَمْرُاءُ رَدَّنِي فاجتهدتُ               | بيمين حَلْفَةٍ عند الغَضَبِ         |
| يشهد الرحمنُ لا يجمعُنَا                     | سَقَفُ بَيْتِ رَجَبًا بعد رَجَبِ    |
| قلتُ حِلًّا <sup>(٤)</sup> فأقبلي مَعذرتي    | ما كذا يحزى محبٌّ من أحب            |
| إن كَفَى لك رهنٌ بالرضا                      | فأقبلي يا هند ، قالت : قد وَجَبُ    |

ونختم حديثنا بهذه القصة يرويها عمر عن نفسه وفيها تصوير لطيف لروح اللهو وللمرح التي كانت سائدة بين شباب عصره لاسيما أهل الجاه والشرف منهم نساء ورجالا وفيها يقول : « بينما أنا منذ أعوام جالس إذ أتاني خالد الخريت

(٢) المائلة .

(١) ناحية .

(٤) استثنى في حلفك .

(٣) الموهن : نحو من نصف الليل .

فقال لى يا أبا الخطاب مرت بى أربع نسوة قبيل العشاء يردن موضع كذا وكذا لم يرمثلهن فى بدو ولا حضر فيهن هند بنت الحارث المريية فهل لك أن تأتيهن متنكرا فتسمع من حديثهن وتتمتع بالنظر إليهن ولا يعلمن من أنت فقلت له : ويحك ! وكيف لى أن أخفى نفسى ؟ قال : تلبس لبسة أعرابى ثم تجلس على قعود ثم اتين فسلم عليهن فلا يشعرن إلا بك قد هجمت عليهن . ففعلت ما قال وجلست على قعود ثم أتيتهن فسلمت عليهن ثم وقفت بقربهن ، فسألننى أن أنشدهن وأحدثهن فأنشدتهن لكثير وجميل والأحوص ونصيب وغيرهم . فقلن لى : ويحك يا أعرابى ما أملحك وأظرفك لو نزلت فتحدثت معنا يوما هذا ، فإذا أمسيت انصرفت فى حفظ الله . فأنخت بعيرى ، ثم تحدثت معهن وأنشدتهن ، فسررن بى وجذلن بقربى وأعجبهن حديثى . . قال : ثم إنهن تغامزن وجعل بعضهن يقول لبعض : كأنا نعرف هذا الإعرابى ما أشبهه بعمر بن أبى ربيعة ! فقالت إحداهن : هو والله عمر ! فمدت هند يدها فانزعزت عمامتى فالتقتها عن رأسى ثم قالت لى : هيه يا عمر ! أترك خدعتنا منذ اليوم ؟ بل نحن والله خدعناك واحتلنا عليك بخالد فأرسلناه إليك لتأتينا فى أسوأ هيئة ونحن كما ترى . قال عمر : ثم أخذنا فى الحديث وحادثهن ساعة ثم ودعتهن وانصرفت . وإليكم بعض ما قال من شعر فى هذه الحادثة :

|                                         |                                                     |
|-----------------------------------------|-----------------------------------------------------|
| ألم تسأل الأطلالَ والمتربعا             | ببطنِ حُلَيَّاتٍ دَوَارِسَ بَلَقَعَا ؟              |
| إلى السَّفْحِ من وادى المغمسِ بُدِّلَتْ | مَعَالِمُهُ وبَلَاءٌ ونكباءُ زَعَزَعَا              |
| لهنْدٍ وأترابٍ لهنْدٍ إِذِ الهوى        | جميعٌ وَإِذْ لم نَخْشَ أَنْ يتصدَّعا                |
| وَإِذْ نَحْنُ مثلُ الماءِ كانَ مِزاجُهُ | كما صَقَّ <sup>(١)</sup> الساقى الرحيقَ المُشْشَعَا |
| وَإِذْ لا نُطِيعُ الكاشحين ولا نرى      | لواشٍ لدينا يطلب الصَّرمَ موضِعَا                   |
| فلما توافَقْنَا وسَلَّمْتُ أَشْرَقَتْ   | وجوهُ زَهاها الحُسْنُ أَنْ تتقنعا                   |

تَبَالَهَنَ بِالْعِرَانِ لَمَّا عَرَفَنِي وَقُلْنَ أَمْرُؤُ : بَانِغٌ أَكَلٌ وَأَوْضَعَا  
وَقَرَّبْنَ أَسْبَابَ الْهَوَى لِمَتَّيْمٍ يَقِيسُ ذِرَاعًا كُلَّمَا قَسَنَ إَصْبَعَا

ولقد كانت هند هذه مصدر وُحِي لِعُمَرَ في كثير من أعماله لطول علاقته بها ،  
وشدة ما عانى في حبها ؛ حتى إنه تفلسف في حبها وقال فيها شعراً جرى مجرى  
الأمثال ، كقوله :

حَسَدًا حُمِلْتُهُ مِنْ أَجْلِهَا وَقَدِيمًا كَانَ فِي النَّاسِ الْحَسَدُ  
أَوْ ذَهَبَ مَذْهَبُ الْحِكْمِ كَقَوْلِهِ :  
إِن جَفَّتْنِي الْيَوْمَ هِنْدٌ بَعْدَ وَدِّ وَأَقْتِرَابِ  
فَسِيلِ النَّاسِ طُورًا لَفَنَاءٍ وَذَهَابِ

## جميل بن نعيم

وإني لأرضى من بُشَيْنَةَ بالذى لو أبصره الواشى لقرت بلابله  
بلا وبألا أستطيع وبالمنى وبالأمل المرجو قد خاب آمله  
وبالنظرة العجلى إذ الحول ينقضى أواخره لا نلتقى وأوائله

هكذا عرف الحب جميل بن معمر إمام الشعراء المذريين الذين ترسم جميل  
خطاهم في حياته . وعذرة التي يُنسب إليها هذا اللون من الحب قبيلة كانت لها  
أعمال مجيدة في أيام العرب ، وكان رجالها من أفصح الناس <sup>(١)</sup> ، واشتهر عشاقها  
بالموت في سبيل حبيباتهم . وقد قال أحدهم يصف قومه : « في نساءنا صباحة وفي  
فتياننا عفة » <sup>(٢)</sup> .

فكان هؤلاء الفتيان ضحايا لتلك الصباحة التي مزقت أكبادهم ، وبددت  
أحلامهم ، وأفنت من شباب القبيلة العدد الكبير .

أما هؤلاء الشعراء المذريون <sup>(٣)</sup> فقد نشئوا في صدر الإسلام الأول وقت توالى  
الفتوحات وكثرة الخيرات وأموال النىء ، لكنهم ربوا في البوادي وعزفوا عما كان  
زملاؤهم الشعراء غارقين فيه من فنون المدح والهجاء واللهو والمجون ، ونزهوا شعرهم  
عن تلك الفنون الرخيصة التي يستجدي بها الشعراء الرِّفْد والصلات .

وبينما كان ابن أبي ربيعة سادراً في غيّه يطلع على الناس كل يوم بحب جديد ،  
كان ابن معمر عاكفاً على حبه يقدس محبوبته ويتصوف بأوراد ذكرها ؛ حتى إذا  
ما وافاه أجله عام ٨٢ هـ ( ٧٠١ م ) في مصر التي لجأ إليها يطلب العون من واليها

(١) الحب المذري لموسى خليل .

(٢) مصارع العشاق .

(٣) هم جميل وقيس بن ذريح وعروة بن حزام وقيس بن الملوح .

عبد العزيز بن مروان الذى منحه الحماية وأعطاه بيتاً لم يطل به المقام فيه . . .  
صرخ قائلاً :

صدع النعمى وما كنى بحميل وثوى بمصر ثواء غير قُمُول  
ويحمل الرجل قيصه إلى بُيْدَنَة بالحجاز ليخبرها وصيته التى لم تزد على أن اسمها  
كان آخر ما هتف به عند موته ، فتلطم وجهها وهى تقول :

وإن سلَوَى عن جميل لساعةً من الدهر لا حانت ولا حان حينها  
سواء علينا يا جميل بن مَعْمَرٍ إذا متَّ بأساء الحياة ولينها  
ولقد استعدَّ جميل لرسالته فى عالم الشعر « فكان راوية هُدبة بن خَشْرَم ، وكان  
هدبة شاعراً راويةً للخطيئة ، وكان الخطيئة شاعراً راويةً لزهير<sup>(١)</sup> » أى أنه تخرَّج  
فى مدرسة شعرية مشهورة التاريخ فى قوة الأسلوب والحرص على المعانى إلى جانب  
استعداد فطرى من مشاعر رقيقة ، ونفس حساسة ، ووجدان مرهف ، وحب قضا  
دهره فى التزم بمزاميره مما غلب الموسيقى على شعره .

وإنه لصادقُ الحب لبثينة ، لا يلتفت إلى أحد سواها ، وهو يقسم لها  
بذلك قائلاً :

حلفتُ لكىما تعلينى صادقاً وللصدق خيرٌ فى الأمور وأنجحُ  
لرؤية يومٍ واحدٍ من بئينةِ اللذِّ من الدنيا لدىَّ وأملحُ  
بل يعرض عن سواها ، وكنَّ كثيرات حوله إما كان يتمتع به من جمال الخلقة  
وقوة الشكيمة والشجاعة والفروسية ، لكن كل مظاهر القوة كانت تتحول إلى  
رقة بالغة وعذوبة محببة ، وهو يشرح لبثينة حبه وما يتحملة فى سبيله ، وما يقاومه من  
إغراء ، وما يفعله من أجلها من مفاضبة الناس . . . كثر ذلك فى شعره بالغ الروعة :  
ولباطلٍ ممن أحب حديثه أشهى إلىَّ من البغيض البازل

صادت فؤادى يا بشين حبالكم يوم الحجون وأخطأتك حبائى  
منيتنى فلويت ماميتنى وجعلت عاجل ما وعدت كآجل  
وتناقلت لما رأت كلفى بها أحب إلى بذاك من متناقل  
وأطعت فى عواذلاً فهجرتنى وعصيتُ فيك وقد جهدن عواذلى  
حاولتنى لأبت حبلى وصالكم منى واست وإن جهدن بفاعلى  
فرددتهن وقد سمعن بهجركم لما سمعن له بأفوق ناصلى  
يعضضن من غيظ على أناملأ ووددت لو يعضضن صم جنادل  
ويقلن إنك يا بشين بخيلة نفسى فداؤك من ضنين باخل

تأمل معى هذه السلاسة فى اللفظ ، وهذه الرقة فى التعبير ، وهذه البساطة فى الحديث المرسل على الفطرة الربانية دون تعقيد أو تصنع .

إن هذه المزاياء الفريدة إلى جانب صدق العاطفة الذى يلهم القصد بمشاعره وضع جيلاً فى مقدمة الشعراء الغزليين . . . استمع إليه يتحدث عن هواه الذى يكاد أن يزهقه :

إنى لأحفظ غيبكم ويسرئنى إذ تذكرين بصالح أن تذكري  
ويكون يوم لا أرى لك مرسلأ أو نلتقى فيه على كأشهر  
يا ليتنى ألقى المنية بقتة إن كان يوم لقائكم لم يُفدّر  
أو أستطيع تجلداً عن ذكركم فيفريق بعض صبايقى وتفكري  
لو قد تُجِنُّ كما أُجِنُّ من الهوى اعذرت أو لظلمت إن لم تعذر  
لا تحسبى أنى هجرتك طائفاً حدث لعمرُك رائع إن تهجري  
يهواك ما عشتُ الفؤادُ فإن أمت يتبع صداى صداك بين الأقبر

لكنه رغم كل هذا الإخلاص والصدق مضطهد لا تستقر به الأرض ، مهدر

دمه ، وهو يحتلى إلى نفسه في مخالبه يتأمل قوة الدنيا ، ويتحدث في دهشة الأطفال وبراءتهم عما أصابته به :

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً      بوادي القري ؟ إلى إذنٍ لسعيدٍ  
وهل ألقين فرداً بثينةَ مرةً      تجود لنا من ودّها ونجود ؟  
خلقتُ الهوى منها وليداً فلم يزل      إلى اليوم ينمي حبها ويزيدُ  
وأفريتُ عمري بانتظارى وعدّها      وأبليتُ فيها الدهرَ وهو جديدُ  
فلا أنا مردودٌ بما جئت طالباً      ولا حبها فيما يبيدُ يبيدُ

وقد غنى من شعر جميل تسعة وعشرون صوتاً ، ولهذه الإشارة مدلول فهي تشهد لشعره بالموسيقية وتبين كيف كانت أشعاره من أفراح الحياة في تلك العهود . بينما كان هو يعاني من حب صاحبه بثينة التي لقيها في يوم من أيام الأعياد فهو يها ، لكن شاءت الظروف أن تقترن بسواه ، فلم يزد الأمر إلا فتنة وجنوناً بها ؛ حتى صدر أمر السلطان بإهدار دمه ، فسافر إلى اليمن مرة ، وإلى الشام مرة ، وهو دائماً محل سخط قومه وقومها ؛ فهم معاتبوه ولائموه على هيامه بامرأة مبدولة لرجل يملك من أمرها كل شيء ؛ ومن الذل والمهانة للرجل الحر أن يخضع لخلوقة تعيش في كنف غيره . وكان هو يعلم سوء ما صار إليه ، لكنه لا يملك من أمر قلبه شيئاً ؛ ومن منا يملك من ذلك شيئاً ؟ ولقد تعذب جميل من أجل ذلك القلب الصادق الصباة حتى إذا ضاقت عليه الأرض بما رحبت سافر إلى مصر وهو مشفق من فراق بثينة . وكأني بقلبه قد أبصر المصير المقضى بعين بصيرته فهو في هلع من الموت بعيداً عنها . . إن ما يتمناه بعد كل هذا الحب أن يسعد وتقرّ روحه بمجاورة قبرها :

فسوف يُرى منها صدودٌ ولم تكن      بنفسى من أهل الخيانة والغدر  
أعوذ بك اللهم إن تشحط النوى      بثينة في أدنى حياتي ولا حشري  
وجوز إذا ما مت بيني وبينها      فيا حبذا موتي إذا جاورت قبري

لقد شغفت نفسي بثينَ بذكركم كما شغف الخمر يا بثنَ بالخمر

ولم تخل قصة جميل من آلام أخرى فهي قد أحبت رجلاً آخر اسمه حُجْنة الهلالي ، فخلَّ بينهما الجفاء أياماً كانت من أشد الأيام هولاً على جميل ، وقد مضى ذلك الهوى الطارئ سريعاً ، وعادت بثينة إلى هواها الفرد . ويحكى جميل عن هذا الفراق :

لقد خفتُ أن يغتالني الموتُ بغتةً      وفي النفس حاجاتُ إليك كما هيّا  
وإني لتثنيني الحفيظة كلَّما      لقيتك يوماً أن أُبشِّكَ ما بيّا  
ألم تعلمي يا عذبة الريقِ أني      أظلُّ إذا لم أسقَ ريقكِ صاديا

إنه لتعبيراً ساذج لطيف عن شدة تعلقه ببثينة وصدق الصباية والعشق الذي سَلَّم به جميع النقاد القدماء للجميل ، وإنه ليعبر عن هذا الوجد الذي يجده في قصيدة أخرى وعن قصور حيلته إزاءه وضعفه ، وهو الذي لم يعبأ بالقتل ولا بالتهديد ، وهو الذي اشتهر بالقوة والشجاعة والإقدام في المعارك . . . إنه يبكي من حبه :

لقد فرح الواشون أن صرمتُ حبلى      بثينةً أو أبدت لنا جانبَ البُخلِ  
يقولون : مهلاً يا جميل ! وإني      لأقسم مالى عن بثينة من مهلِ  
أحلماً فقبل اليوم كان أوانه      أم أخشى فقبل اليوم هددت بالقتلِ  
إذا ما تراجعتنا الذي كان بيننسا      جرى الدمع من عينيّ بثينة بالكحلِ  
كلانا بكى أو كاد يبكي صبايةً      إلى إلفه واستعجلت عبرة قبلي  
فلو تركت عقلي معي ما طلبتها      ولكن طَلَّابها لِمَا فات من عقلي  
فيا ويح نفسي حسب نفسي الذي بها      ويا ويح أهلى ما أصيب به أهلى  
خليلىّ فيما عشتما هل رأيتما      فتيلاً بكى من حب قاتله قَبْلِي ؟

وما كان الحب لدى جميل عارضاً ينقضى ، بل كان غاية في ذاته ، بل محور حياته التي فرغ فيها للحب بعيداً عما شغل به معاصروه من الشعراء كابن أبي ربيعة الذي كان يتخذ من الحب وسيلة لإزجاء الفراغ أو المباهاة أو اللهو .

إن فراغ جميل وإخوانه من الشعراء العذريين للحب لم يكن مضیعة بل كان كسباً لهم وللدنيا ، فهم قد خلدوا بأجمل أشعار الحب ، وخلفوا للدنيا واحات من الشعر والعاطفة السامية أقدس العواطف البشرية طراً . وهل أبلغ على جدية هذه المشاعر من تخيل جميل أن الحب نوع من أنواع الجهاد ، وأن قتيل الحب شهيد لا يقل أجراً عن شهيد الجهاد في سبيل الله :

يقولون جاهدْ يا جميلُ بغزوةٍ وأيّ جهادٍ غيرهن أريدُ  
لكل حديث عندهنَّ بشاشةٌ وكل قتيل بينهما شهيدُ

وهو يرى الحب نوعاً من العبادة والتصوف يحمله على السفر أياماً إليها بدون أن يتذوق زاداً من طعام ، بل كان زاده الحب وروح الحبيب التي تتمثل له في كل لحظة من لحظات الحياة فهل إذا قال جميل بعد ذلك :

ذكرتُ مُقامي ليلةَ البان قابضاً على كف حوراء المدامع كالبدْرِ  
فكُدتُ ولم أملكُ إليها صبايةً أهِيمُ ، وفاض الدمع مني على النحرِ  
فيا ليت شعري هل أبيتُنَّ ليلةً كليتنا حتى نرى ساطع الفجرِ ؟  
تجود علينا بالحديث وتارةً تجود علينا بالرُضاب من الغفرِ

يدعونا هذا الشعر إلى الشك في عذرية جميل ؟ إن جمیلاً بشر ، ولو أنه لم يذكر حبيبته ، ويتمنى أن تكون له كما يتمنى الرجل المرأة لخرج من نطاق البشرية ؛ لكن يكفي جمیلاً فخراً وشرفاً أنه جاهد حيوانيته وغرائزه وحافظ على حبيبته وطهر حبه ، وكابد في هذه السبيل ما أورده موارد الهلاك .

لها في سواد القلب بالحب مَيِّمَةٌ      هي الموت أو كادت على الموت تُشرفُ  
وما ذكرتِكِ النفسُ يا بَئْنَ مرةً      من الدهر إلا كادت النفس تتلفُ  
وإلا اعترفتني زفرةً واستكانةً      وجاد لها سَجَلٌ من الدمع يذرفُ  
وما استطرفت عيني حديثاً نُحْلَلُهُ      أمرٌ به إلا حديثك أطرفُ  
وما زال يسأَلنا عن سر هذه الآلام :

ألا أيها النوام ويحكم هبوا      نسألكم : هل يقتل الرجل الحب؟

## كشیر

نشأ أبو صخر كثير بن عبد الرحمن بن الأسود في العصر الأموي ، فكان آخر راوية بين الشعراء ، وكان راوية لجميل بن مغمر فاقتفى أثره في الشعر العذري وفي ترسم منهج مدرسته الشعرية التي عنيت بقوة الأسلوب والحرص على المعاني وحمل مشعل المدرسة من بعد جميل حتى وافاه أجله عام ١٠٥ هـ في ولاية يزيد ابن عبد الملك .

وكان هو وأستاذه يتنازعان زعامة الشعر في عصرهما ، لكنهما كانا يريان حق الإخاء ، ويثنى كل منهما على صاحبه ؛ فقد جاء في الأغاني أنهما النقيض فتذاكرا النسيب فقال كثير : يا جميل أترى بثينة لم تسمع بقولك :

يَقِيكَ جَمِيلٌ كُلُّ سَوْءٍ أَمَّا لَهُ      لَدَيْكَ حَدِيثٌ أَوْ إِلَيْكَ رَسُولٌ ؟  
وَقَدْ قُلْتُ فِي حُبِّ لَكُمْ وَصَبَابِي      مُحَاسِنَ شَعْرِ ذَكَرْهُمْ يَطُولُ  
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَوْلِي رِضَاكَ فَعَلَّمَنِي      هُبُوبَ الصَّبَا يَا بَنَنَ كَيْفَ أَقُولُ  
فَمَا غَابَ عَنْ عَيْنِي خِيَالُكَ لِحَظَةً      وَلَا زَالَ عَنْهَا وَالْخِيَالُ يَزُولُ

فقال جميل : أترى عزّة يا كثير لم تسمع بقولك :

يَقُولُ الْعِدَا يَا عَزَّ قَدْ حَالَ دُونَكُمْ      شَجَاعٌ عَلَى ظَهْرِ الطَّرِيقِ مَصَّمٌ  
فَقُلْتُ لَهَا : وَاللَّهِ لَوْ كَانَ دُونَكُمْ      جَهَنَّمُ مَا رَاعَتْ فَوَادِي جَهَنَّمُ  
وَكَيْفَ يَرُوعُ الْقَلْبَ يَا عَزَّ رَائِعٌ      وَوَجْهَكَ فِي الظُّلُمَاءِ لِلسَّفَرِ مَعْلَمٌ  
مَا ظَلَمْتُكَ النَّفْسُ يَا عَزَّ فِي الْهَوَى      فَلَا تَنْقِمِي حُبِّي فَمَا فِيهِ مَنَقَمٌ

فبكيا قطعة من الليل ثم انصرفا .

ويكاد يُجمع الرواة على أن كثيراً أشعر الناس في العصر الأموي ، ويدكر أنه قال لعبد الملك : كيف ترى شعري يا أمير المؤمنين ؟ فقال : أراه يسبق السحر ويغلب الشعر .

وقد امتاز شعره بالصياغة الجميلة التي يتأنق فيها صاحبها ويزيد في صقلها حتى يصل به الأمر أحياناً إلى التزام مالا يلزم ، كقصيدته التي يقول فيها :

تمنيها حتى إذا ما رأيتهما رأيت المنايا شرعاً قد أظلت  
وما أنا بالداعي لعزة بالجوى ولا شامت إن نعل عزة زلت  
فلا يحسب الواشون أن صبابتي بعزة كانت غمرة فتجلت

كما أثر في نفس كثير ، وبالتالي في شعره ، ما اشتهر به من الفصم والعور مما لم يجعله أهلاً للمصاولات الجثمانية ولا المنافسات الغرامية لاسيما في عهد جميل وابن أبي ربيعة وغيرهما ممن اشتهروا بصباحة الوجوه وجمال الأجسام فلم يكن له بد من اعتناق المبدأ القائل بأفضلية الروح على الجسد ، وبأن الأخلاق هي ما يزين الرجال لا الأجسام :

تري الرجل النحيف فتزدريه وفي أثوابه أسد هصور  
ويعجبك الطير فتبتليه فيخلف ظنك الرجل الطير  
بغاث الطير أطولها رقاباً ولم تطل البزاة ولا الصقور  
خشاش الطير أكثرها فراخاً وأثم الصقر مقلات نزور  
ضعاف الأسد أكثرها زئيراً وأصرها اللواتي لا تزيرو  
وقد عظم البعير بغير لب فلم يستغن بالعظم البعير  
ينوخ ثم يضرب بالهراوى فلا عرف لديه ولا نكير  
يقوده الصبي بكل أرض وينحره على الثرب الصغير  
فما عظم الرجال لهم بزين ولكن زينهم كرم وخير

بل لعل كثيراً قد غالى في التشيع ولم يخف مشاعره هذه حتى بين يدي خلفاء  
بنى أمية ، وهو المذهب المنهزم في عصره ايعوض شعوره بالنقص من هذه الناحية  
الخلقية التي كثيراً ما جعلته موضع التندر ، ويظهر للناس مقدار قوته وجبروته .

أما فيما عدا هذه الحالة النفسية الخاصة فقد كانت روح الفطرة هي الغالبة  
على شعره الذي استوحى فيه أبسط المعاني وأجراه مجرى الكلام المرسل . .  
استمع إليه في هذا العتاب الرقيق فسترى صديقاً يتحدث إلى صديقه ونفساً متألة  
تشكو إلى نجيها وصفي روحها في غير تسكاف ولا تصنع :

لقد كذب الواشون ما بُحْتُ عندهم      يا ليلى ولا راسلتهم برسيل<sup>(١)</sup>  
فلا تعجلى يا ليلى أن تنفهمي      بنصح أتى الواشون أم بخبول<sup>(٢)</sup>  
فإن طبت نفساً بالعطاء فأجرلي      وخير العطا يا ليلى كلّ جزيل  
وإن تبذلي لي منك يوماً مودة      فقدّمّا تخذتُ القرض عند بذول  
وإن تبخلي يا ليلى عني فإنني      موكّلة نفسي بكلّ بخيل  
وهو يلتزم الهدوء لأن الثورة لا تجدى أمثاله من الأقزام الذين لا يملكون من  
القوة ما يغتصبون به حقوقهم وهؤلاء ليس أمامهم إلا الاستسلام لأقدارهم :

ندمتُ على ما فاتني يومِ بذتُم      فيا حسرتاً ألا يرَيْنَ عويلي  
أقيمي فإن العور يا عزّ بعدكم      إلىّ إذا ما بذتِ غير جميل  
كفى حزنًا للعين أن ردّ طرفها      لعزّة عير أدّنت برحيل  
توليت محزوناً وقلت لصاحبي :      أقاتلتى ليلى بغير قتيل ؟

ولاشك أن هذا الحرمان وذاك العذاب الذي كابده كثيراً كانا من أسباب  
إبداءه في الشعر وتفوّقه في النسيب لما يهيجان من مشاعر الوجد ولواعج الشوق  
ولوعة الحرمان .

ولقد امتاز كثير في شعره بإجادة الوصف والتصوير فاستمع إليه يصف انصراف  
الحبيج عن منى وقد اختلط الحابل بالنابل وانشغل كل فرد بنفسه وشغل هو بعزة :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح  
وشدت على حذب المهاري رحالنا ولا يعلم الغادى الذى هو رائج  
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح

إنها صورة حية الموقف بكل ما فيه أبدعها ذكاء كثير ومصورته العجيبة :  
ولقد مدح كثير الأمراء ونال صلاتهم ، وقد شذ بذلك عن الشعراء العذريين  
الذين نزهوا شعرهم عن هذا الفن من فنون الشعر . ولعله كان له مندوحة من  
إقامته في الحضر كثيراً مع ما تتطلبه هذه الإقامة من تكاليف ، ولم يعرف عنه  
أنه كان ذا ثراء .

واستطاع كثير أن يظفر بالحب ، وأن يسعد بهذه العاطفة التي خاف أن تفلته  
فيكتب لنا شعراً في الذروة من النسيب . ولقد لمس صدق حب عزة بنت مجمل له  
عند ما علم بخروجها إلى مصر لثقله فجلس يرقب تلك السحابة الكريمة التي ستحمل  
إليه الخير والحياة :

لعمري نئن كان الفؤاد من الهوى بغى سقماً إلى إذن لسقيم  
فإما ترينى اليوم أبدى جلادة فإنى لعمري تحت ذاك كليم  
ولست برأى نحو مصر سحابة وإن بعدت إلا قعدت أشيم  
وقد كان زوجها يرغما على شتمه ؛ فتبكي ؛ وفي ذلك يقول :

يكلّفها الغيرانُ شتمى وما بها هوانى ولكن للمليك استذلت  
فهل بعد ذلك يستغرب أن يخلص لها الحب ، ويتفانى في إخلاصه ويقول لمن  
لامه في حبه وقصره شعره عليها : لقد سار بها شعري ، وطار بها ذكري ، وقرب بها  
من الخلفاء مجلسي ، وإنها لكما قلت فيها :

فأقسمت لا أنساك ما عشت ليلة وإن شحطت دارٌ وشطَّ مزارها  
وإني لأسمو بالوصال إلى التي يكون شفاء ذكرها وازديارها  
من الخفِرات البيض لم ترَ شقوةً وفي الحسب الحُض الرقيم نجارها  
ويتفجع لفراقها فيرى كل آماله تنهار وتتبدد كما تبدد أهل سبأ بعد انهيار سدِّ  
مأرب لكنه مع ذلك حافظٌ لعهدها :

أيادي سبأ يا عزَّ ما كنت بعدكم فلم يحل للعينين بعدك منظرُ  
تغيَّر جسمي والخليفة كالذي عبتُ ولم يخبر بسرِّك مخبرُ  
إنه لا يرى في الوجود سواها وأصبحت كل حياته من أجلها ؛ حتى الجدل لا يرومه  
ولا يسعى له إلا ليحمد لدى عزة ، ويرى لكل الناس أشغالهم ، وحب عزة شاغله ،  
وكيف لا يشغله إذا كانت :

من الخفِرات البيض ودَّ جلسُها إذا ما انقضتْ أحدىة لو تعيدها  
إنه حب لا محيد عنه ولا مهرب . . . لقد استعبدت فؤاده وملكته فلن يصرفه  
عنها شيء ولو كان كرهها له .  
وكيف يؤدُّ القلب من لا يؤدُّه ؟ بلى .. قد تريد النفس من لا يريدُها  
ذلك لأنه لا يستطيع نسيانها لأنها ملأت آفاق الدنيا في ناظره :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثُلُ لي كَيْلَى بكل سبيل  
لقد لقي كثيرٌ في هذا الحب الكثير من الأهوال والآلام ، وخاصم الكثيرين ،  
وتعرض للهوان ، وحاول جاهداً أن يعزَّ عزة في جميع حالاته ، وأن يحتمل كل  
هذه الآلام في صبر من أجلها لكن قلبه كان يصرخ مستنجداً بين جنبيه فتساب  
مشاعره في شعر بالغ الرقة يثير الشفقة ويستدر الدموع .

أمنقطعُ يا عزَّ ما كان بيننا وشاجرني يا عز فيك الشواجرُ  
إذا قيل هذا بيت عزة قادني إليه الهوى واستعجلتني البوادرُ

أصدُّ وبى مثل الجنون لـكى يرى رواة الخنـا إني لبيـتك هاجر  
ألا ليت حظى منك يا عزّ لـانى إذا بذتِ باع الصبرِ لى منك تاجرُ  
وكان كثيرٌ يحترم العفة فى الحب ، ويقـدس الجـال فى عـزة تقديساً يقرب  
إلى العبادة .

نظرت إليها نظرة ما يسرّنى بها حمر أنعام البلاد وسودها  
بل إن حبه هو العبادة نفسها ، وحديث عزة عنده من نفحات السماء :  
رهبان مـدّين والذين عبدتهم يـبكون من حـذر العذاب قـعودا  
لو يسمعون كما سمعت حديثها خرّوا لعزة رُكعاً وسجوداً  
إن كثيرًا كان متصوفاً يتخذ من حب عزة فـلـكاً يتعبد فيه ، ومن إشعاره  
أوراداً لا يمل الزمان تردادها ؛ حتى آمن بقدرة الجـال على بعث الموتى حين قال :  
الله يعلم لو أردتُ زيادةً فى حب عزة ما وجدتُ مزيداً  
والميتُ ينشر إن تمس عظامه مساً ويخـلد أن يراك خلودا  
وتمضى القصة فتذكر أن كثيرًا وعزة تغاضباً فافترقا ، وعاد كثيرٌ إلى المدينة ؛  
لكن المقام لم يطب له بعيداً عنها فرجع إلى مصر ، لكنه بلغها والناس ينصرفون  
من جنازة عزة فأنى قبرها ، وأناخ راحلته عنده ، ومكث ساعة ثم رحل  
وهو ينشد :

أقول ونضوى واقف عند قبرها عليك سلام الله والعين تسفحُ  
وقد كنت أبكى من فراقك حية فأنت لعمري اليوم أنأى وأنزحُ

## بشر

قد عشت بين الندمان والراح والميز

هر في ظل مجلس حسن

هكذا وصف أبو معاذ بشار بن بُرْد حياته ، وهكذا عاش سنيه السبعين حتى مات عام ١٦٧ هـ متأثراً ، كما قيل ، بالضرب الذي ضربه الشياطين حين سمع يؤذن وهو سكران في غير وقت الأذان .

وقد وصفه الناس بأنه « أعمى ودميم ومضطهد ومنجوس ودساس ومشاكس وسليط وفاجر ومشكك ومعمقوت وكاره للبشر » . وقد يكون بهذا الوصف بعض المبالغة وبعض الخطأ لأن بشاراً لم يخرج عن كونه نتاج بيئته وهو قد نشأ في مستهل عصر المدنية العباسية حينما بدأت تظهر إلى الوجود الفرق الإسلامية والزندقة في الإسلام ، وكانت الآراء تتغير كل يوم تفسير الأزياء . وكان بشار يغشى يوماً مجالس المعتزلة ليسمع آراءهم ، فإذا ما أعجبته ذكرها في شعره ؛ وفي يوم آخر ينظر في آراء الزنادقة ، فإذا ما راقته تحدث بها في سمره . وهو في هذا وذاك لا يأخذ الأمر مأخذ الجدل ، بل هو يسلك نفسه في عداد الظرفاء من الشعراء فيقول مثلاً :

إبليس أكرم من أيكم آدم فتبينوا يا معشر الأشرار  
النار عنصره ، وآدم طينة والطين لا يسمو سمو النار

ولا يخلو شعره من آراء في الجبر وغيره مما شاع في عصره ، ذلك العصر الذي أوغل في الترف وكثر فيه المجان ومجالس اللهو واللجون ، إلى جانب أنه نشأ في بيت أبعد ما يكون عن الوقار . فأما قد تزوجت عبدها بُرد ، ذلك المولى الفارسي الذي كان يضرب بشاراً ضرباً مبرحاً لهجوه الناس « فكانت تقول له أمه : لم تضرب

هذا الغلام الضرير؟ أما ترجمه؟ فيقول: بلى والله إنى لأرحمه ولكنى يتعرض للناس فيشكونه إلى، فسمعه بشار فطمع فيه وقال: إن هذا الذى يشكونه إليك منى هو قولى الشعر وإنى إن أتممت عليه أغنيتهك وسأثر أهلى؛ فإذا شكوتنى إليك فقل لهم: أليس الله عز وجل يقول ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ فلما أعادوا الشكوى على أبيه قال لهم ذلك، فانصرفوا وهم يقولون: فقه بُرد أغيظ لنا من شعر بشار! ».

وكان بشار ضخم الجثة ذا طبيعة حيوانية عارمة تستمرى اللهو والفجور، وكان يعلم ما يتعرض له مَنْ كان أعشى مثله فى مواضع اللهو من العبث والسخرية والتغامز، فوطّن نفسه على مواجهة كل ذلك بأن خلع رداء الحياء، ولم يبال فى حياته بشرف أو دين، ولا راقب الناس فى أمر من الأمور استهواه.

ومع ذلك فقد سلكه شعره فى مقدمة الشعراء، بل عُدّ من أكبر شعراء عصره لما امتاز به شعره من الرصانة والصحة، حتى أنه وهو الأعمى الأصل كان يدل على العرب بسلامة لفظه وجودة نظمه فيقول: « ومن أين يأتينى الخطأ وقد ولدت هنا، ونشأت فى حجور ثمانين شيخاً من فصحاء بنى عُقَيْل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ؟ وأما نسائهم فأفصح منهم، وأيفعت فأبديت إلى أن أدركت، فمن أين إذن يأتينى الخطأ؟ ».

وإذا كان أدباء اليوم يكثرّون الحديث عن الأدب الواقعى ورسالة الأدب فى تصوير واقع الحياة فقد كان بشار منذ ألف ومائتين من السنين خير من صوّر الواقع، انتزع صور شعره مما حوله ومن أحداث يومه... استمع إليه فى هذه القصة:

حَسْبِي وَحَسْبُ الَّذِي كَلِفْتُ بِهِ مَنَى وَمِنْهُ الْحَدِيثُ وَالنَّظَرُ  
أَوْ عَضَّةٌ فِي ذِرَاعِهَا وَلَهَا فَوْقَ ذِرَاعِي مِنْ عَضِّهَا أُثْرُ  
أَوْ لَمَسَةٌ دُونَ مِرْطِهَا بِيَدِي وَالْبَابُ قَدْ حَالَ دُونَهُ السُّتْرُ  
وَاسْتَرَحْتُ السَّكْفُ لِلْعَنَاقِ وَقَالَ لَتِ إِلَيْهِ عَنَى وَالْدمعُ مَنْحَدِرُ

أنهضن فما أنت كالذى زعموا أنت وربى مُعَاذِلْ أَشِرُّ  
 ياربُّ خُذْ لى فقد ترى ضَرَعى من فاسقِ جاء ما به سَكْرُ  
 أهوى إلى مِعْضِدَى فِرْضَضِهِ ذو قوَّةٍ ما يطاق مَقْتَدِرُ  
 كيف بأُمى إذا رأت شَفَتى أم كيف إن شاع عنك ذا الخَبِرُ  
 قلت لها عند ذاك : يَاسَكَنِى لا بأس ! إني مجرَّبٌ خَبِرُ  
 قولى لها بَقَّةٌ لها ظَفَرُ إن كان فى البَقِّ ماله ظَفَرُ

ألا ترى فى هذا الشعر صورة فاضحة من ليلة ماجنة من ليالى بشار ؟ وانه لا يكتفى  
 بوصف ما حدث بل لا بد له من السخرية والنكتة اللطيفة يختتم بها قصته عن تلك  
 البقة ذات الظفر .

وهو يحدثنا فى قصيدة أخرى عن مباحج السهر وما تحتويه دنيا الليل من جمال  
 وأحداث مثيرة فيقول :

عجبتُ فاطمُ من نَعَتى لها هل يجيب النعت مكفوفُ البَصَرُ  
 بِنْتُ عَشْرِ وثلاثٍ قسمت بين غصن وكثيب وقمرُ  
 أذرت الدمع وقالت : ويلتى من ولوع الكف ركبَابُ الخطَرُ  
 أمتى بددَ هذا لُعْبى ووشاحى حَلَّه حتى أنتثر  
 أيها النّوَامُ هُبُوا وَيَحْكُمُ وَسَلُونى اليومَ ما طَعَمُ السهرُ

لكن هذا الشاعر العاثر يقف أحياناً فى طريق الحياة فيطرح العبث جانباً ،  
 ويصطنع شيئاً من الجدِّ ، ويتأمل تصارييف القدر فيأتى لنا بشعر يزينه الوقار وإعمال  
 الفكر ، والخوف من العقاب :

بدالى أن الدهر يقدح فى الصفا وأن بقائى إن حميتُ قليلُ  
 فعش خائفاً للموت أو غيرَ خائف على كل نفس للحِجَامِ دليلُ  
 ( م ٣ — فى موكب الحالدين )

حليلاً ما قدمت من عمل الثَّقَى وليس لأيام المنون خليلُ

بل يحيل إلى أنه أسرف على نفسه في الجد واصطفاع الفلسفة عندما قال :

إذا كنتَ في كل الأمور معاتباً صديقك لم تلقَ الذي لا تعاتبهُ

فعمش واحداً أو صِلَ أخاك فإنه مُقارِفُ ذنبٍ مرةً ومُجانبُهُ

إذا أنت لم تشرب مراراً على القَدَى ظمئت ، وأىُّ الناس تصفو مشاربُهُ

لكن بشاراً اشتهر بالهجاء منذ نشأته ، وقد كان لأصله الفارسي ونشأته بين

فرم عرب يحتقرون كل ما هو أعجمي دخلَ كبير في إسرافه في السخرية من كل

شيء لا سيما هذه الأصول والأنساب

تُفَاخِرُ يَا بَنَ رَاعِيَةٍ وَرَاعٍ بَنَى الْأَحْرَارَ حَسْبُكَ مِنْ خَسَارٍ

وكنتَ إذا ظمئتَ إلى قَرَّاحٍ شَرِكتَ الْكَلْبَ فِي وَلُغِ الْإِطَارِ

مُقَامُكَ بَيْنَنَا دَنَسٌ عَلَيْنَا فَلَيْتَكَ غَائِبٌ فِي حَرِّ نَارِ

وخرُك بين خنزيرٍ وكلبٍ على مثلى من الحدَثِ الْكِبَارِ

وقد كان هذا المجتمع القَبَلِي يقود بشاراً إلى الثورة عليه ، وتبلغ به التوبة أن

يدعو الموالى جميعاً إلى الثورة معه على الجنس العربي فيقول :

أصبحت مولى ذى الجلالِ وبعضهم مولى العريب فخذُ بفضلِكَ فَأُخْرِ

مولاك أكرم من تميم كلَّهما أهل النعال ومن قريش المشعرِ

فارجعْ إلى مولاك غير مدافعٍ سبَّحان مولاك الأجلّ الأكبرِ

لكن أغلب الهجاء في شعر بشار لا يحمل مرارة الغل وظلمة الحقد على الناس ،

بل هو أقرب إلى الفكاهة والدعابة المضحكة التي تسلح بها ضد الناس حتى يأمن

خبثهم وتندّرهم بعاهته .

فقد روى أن رجلاً سأله عن منزل ذكره له فجعل يفهمه والرجل لا يفهم فلما

يئس منه بشار أخذ بيده وقام يقوده إلى المنزل الذي ينتغيه وجعل يئش في طريقه :  
أعمى يقود بصيراً لا أبالـكـو قد ضلّ من كانت العميان تهديه  
وظل يقوده حتى وصل به إلى المنزل ثم دفعه إلى داخله وقال له هذا هو المنزل  
يا أعمى .

كما كان بشار يعتبر الهجاء باباً من أبواب الكسب إذ قال : « إني وجدت  
الهجاء المؤلم آخذاً بضيق الشاعر من المديح الرائع ، ومن أراد من الشعر أن يكرم في  
دهر اللثام على المديح فليستعد للفقير وإلا فليبالغ في الهجاء ليخاف فيعطى » .  
وعلى هذا الأساس كان في كثير من هجائه لا همّ له إلا جمع العيوب والمبالغة  
في المهجر والفحش حتى قلّ ما يصلح من شعره هذا للنشر أو الحفظ .  
وقد قال لما مات الرشيد ودفن بطوس إلى جوار قبر الرضا :

قبران في طوس خير الناس كلهم وقبر شرهم . . . هذا من العبر  
ما ينفع الرجس من قرب الزكي ولا على الزكي بقرب الرجس من ضرر  
وقال في المعتصم :

ملوك بني العباس في الكتب سبعة ولم تأتنا عن ثامن لهم الكتب  
كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة خيار إذا عُدّوا وثامنهم كلب  
وإني لأعلى كلّهم عنك رتبة لأنك ذو ذنب وليس له ذنب  
وإذا كانت العجمة عيباً فهو يهجو به رغم أنه من أصل فارسي فيقول :

سباويه يا ابن الفارسية ما الذي تحدثت عن شتمى وما كنت تنبذ ؟

وهكذا يمضى بشار في حياته مستهتراً بكل القيم المتعارف عليها بين الناس  
لا يبالي بمقدساتهم ولا بعاداتهم ، ويمتد هذا الاستهتار حتى يصل إلى شعره فيسف  
به أحياناً إلى مثل هذا النظم :

رَبَابَةٌ رَبَّةٌ الْبَيْتِ تَصْبُ الْخَلِّ فِي الزَّيْتِ  
لَهَا عَشْرُ دُجَاجَاتٍ وَدِيكَ حَسَنُ الصَّوْتِ

ولا يبالي إذا لم يسعفه الوحي بآتمام شعره بألفاظ ليست من العربية ، بل لا وجود لها في اللغات كقوله :

صَبِبتْ هَوَاكَ عَلَى قَلْبِهِ فَضَاقَ وَأَعْلَنَ مَا قَدْ كَتَمْتُ  
وَقَالَتْ : هَوَيْتَ فَتَى رَاشِداً كَمَا مَاتَ عُرْوَةُ غَمًّا بَعَمْتُ  
دَسَسْتُ إِلَيْهَا « أبا مَجَازٍ » فَأَيُّ فَتَى إِنْ أَصَابَ اعْتَزَمْتُ  
فَمَا زِلْتُ حَتَّى أَنْابَتْ لَهُ فَرَّاحٌ وَحَلَّ لَنَا مَا حَرُمْتُ

ولما سأله سامع : ومن هو أبو مجلز ؟ قال له : وما حاجتك إليه ؟ ألك عليه دين ؟ أنطالبه بطائفة ؟ هو رجل يتردد بيني وبين معارف في رسائل .

بل إن هذا الاستهتار أو النظر في يصل إلى غزل بشار فस्कأنه لم يحس بلفح الهوى ، ولا أصابته نيران الحب ؛ بل هو يحدثنا في إحدى قصائده بشعر خفيف لاه عن اضطاراره إلى مقاطعة الحبيب كأمر الخليفة ، وهو لا يحس من هذه القطيعة سوى ذكرى ضاحكة ساخرة من دموع تلك الحبيبة :

يَا مَنْظَرًا حَسَنًا رَأَيْتُهُ مِنْ وَجْهِ جَارِيَةٍ فَدَيْتُهُ  
بَعَثْتُ إِلَى تَسْوَمَنِي ثُوبَ الشَّبَابِ وَقَدْ طَوَيْتُهُ  
وَاللَّهِ رَبِّ مُحَمَّدٍ مَا إِنْ غَدَرْتُ وَلَا نَوَيْتُهُ  
أَمْسَكْتُ عَنْكَ ، وَرَبِّمَا عَرَضَ الْبَلَاءُ وَمَا ابْتَغَيْتُهُ  
إِنْ الْخَلِيفَةُ قَدْ أَبَى وَإِذَا أَبَى شَيْئًا أَبَيْتُهُ  
وَمُخَضَّبٍ رَخِصَ الْبَنَانِ بَكَى عَلَى وَمَا بَسَكَيْتُهُ

ويشوقني بيت الحبيب إذا أدكرت ، وأين بيته  
قام الخليفة دونه فصبرت عنه وما قلته  
وتطغى واقعية بشار على شعره ، حتى تستحيل مادية شاملة تجسم كل شيء ،  
حتى ما يرى وما يسمع ، بل إنها تحيل العواطف إلى ماديات تلمس وتحس ؛ فاستمع  
إليه يقول :

إذا نظرت صببت عليك صبايةً وكادت قلوبُ العاشقين تطيرُ  
وإذا وصف حديث النساء وهو مولع به قال :  
وحديث كأنه قطع الرّؤى ض وفيه الصفراء والجرأه  
إن الحديث أبعد لذات بشار عن المحسوسات لـكنه لا يرتاح حتى يشبهه بكل  
محسوس وجميل ملموس فيقول في موضع آخر :

ولها مَبْسُومٌ كتنفر الأفاحي وحديث كالوشى وَشَى البرودِ  
لكن يبدو أن الهوى أقوى من سخرية بشار وله سلطان تذلل له النفوس  
وتضعف فتذهب تتلمس الأعذار ، وترجو المشاركة والعطف ، وتنطق بشاراً بمثل قوله :  
يا قَوْمُ أَذْنِي لِبَعْضِ الْحَيِّ عاشقةٌ  
والأذنُ تعشِقُ قبل العين أحياناً

قالوا : بمن لا تَرَى تَهْذِي ! فقلت لهم :  
الأذنُ كالعين تُوفِي القلبَ ما كانا  
وهل حقيقة كان بشار يهذى أم هو الحب يستوى فيه الناس جميعاً مبصرهم والأعمى ؟  
وما تبصر العينان في موضع الهوى ولا تسمع الأذنان إلا من القلبِ  
وما الحسَنُ إلا كلُّ حسن دعا الصبا وألف بين العشق والعاشق الصبِّ